الآداب
المجلد:24، العـدد:01، ديسمبر 2024
الصفحات: 197 – 210
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

الرّواية العربية المعاصرة في ضوء التّحوّلات الاجتماعية والسّياسية رواية "عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني أنموذجا

Contemporary Arabic Literature in Light of Social and Political Transformations: The Novel of 'The Yacoubian Building' by Alaa Al Aswany as a Model

[1] ط.د. لخضر فرج
[2] أ.د. عبد الرحمان بن يطو
[1] جامعة محمد بوضياف المسيلة – الجزائر، lakhdar.fredj@univ-msila.dz
[2] جامعة محمد بوضياف المسيلة – الجزائر، abderrahmane.benyettou@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: 2024/07/06 تاريخ القبول: 2024/11/22 تاريخ النشر: 2024/12/15

ملخص:
يهدف هذا البحث إلى تبيان أهم التّحولات الاجتماعية والسّياسية الّتي عالجها الأسواني في روايته "عمارة يعقوبيان" وأثرها على تركيبة المجتمع المصري الناشئ، خلال فترات متعاقبة، وخلصت في بحثي هذا إلى أن الرواية العربية المعاصرة ممثّلة في المدّونة المختارة تأثرت كثيرا بمفرزات التّحول الاجتماعي والسّياسي السائد خلال هذه الفترات، وحاوَلتْ بجدية وواقعية أن تعطي تفسيرات منطقية توضح معالم كلّ تحول، وتبدي أسباب تمظهره في واقع الحياة الاجتماعية وتطوّرها عبر الزّمن والنتائج المسجلة الّتي قَاربتْها بنوع من الدّراسة والتّحليل .
كلمات مفتاحية : التّحوّلات الاجتماعية؛ التّحولات السّياسية؛ عمارة يعقوبيان؛ علاء الأسواني.

Abstract:
This research aims to demonstrate the most significant social and political transformations addressed by Al-Aswani in his novel 'The Yacoubian Building' and their impact on the structure of the emerging Egyptian society during successive periods. In this study, I concluded that contemporary Arabic literature, as represented in the selected corpus, was greatly influenced by the disparities of the prevailing social and political transformations during these periods. Contemporary Arabic literature has earnestly and realistically attempted to provide logical explanations that clarify the features of each shift, revealing the reasons for its manifestation in the reality of social life and its development over time, along with the recorded results that it approached through a kind of study and analysis.

المؤلف المراسل: لخضر فرج.

Keywords: *Social transformations; political transformations; the Yacoubian Building; Alaa Al Aswany.*

مقدمة:

شهدت الرّواية العربية ومنذ نشأتها مسارا طويلا وحافلا بالإنجازات، كونها لم تكن بمنأى عن الأحداث والوقائع الّتي تحيط بها، ولأنّ البنية السّردية لأي رواية تنطلق من بيئة محدّدة، وأزمنة معينة، فقد كان مع هذا التّوجه تأثرها بأحداث وتحوّلات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وعلى اعتبار أن نموذج دراستي البحثية كان من البيئة المصرية، لذا عمدت إلى تتبع التّحولات الحاصلة في نسيج المجتمع المصري، ومدى تأثيرها على بنية النّص الرّوائي، وتسليط الضّوء على فترات زمنية متعاقبة وما رافقها من أحداث هامة، وأسعى من خلال هذا المقال إلى التّعرف على أهم التّحولات الاجتماعية والسّياسية الحاصلة بالإجابة على الإشكالية الرئيسية الآتية: كيف تمظهرت التّحولات الاجتماعية والسّياسية في عمارة يعقوبيان؟ وما أبعاد وتأثيرات هذه التّحولات في بنية النسيج الاجتماعي المصري؟ وتهدف هذه الدّراسة إلى:

– تحديد أهم التّحولات الاجتماعية والسّياسية الّتي عرفتها مصر خلال فترات متعاقبة من تاريخها المعاصر ومدى احتواء ورصد مدونة الدّراسة لها .

– تعرية واقع بعض الظّواهر الاجتماعية والسّياسية في أبعادها الزّمانية والمكانية وموقف المؤلف منها في عمله الأدبي الإبداعي .

وقد اعتمدت في ورقتي البّحثية على المنهج الاجتماعي والتّاريخي في رصد وتتبع الظّواهر ونتائجها من خلال الوقوف عند أبعادها وتحوّلاتها في سياقاتها الزمانية والمكانية.

1. مفهوم الرّواية الاجتماعية:

هذا النّوع من الرّواية يأخذ مفهومه من المواضيع الّتي تختص بدراسة المجتمع خلال مساره الإنساني والتّحولات الحاصلة فيه، والطّبقات المهمشة الّتي تنتسب إليه، وغيرها من المواضيع الشائكة الّتي تؤثر في تركيبته ونسيجه التّكويني، فهي "الّتي تقدم شخوصا يشبهون شخصيّات الواقع المعيش في ظروف اجتماعية مختلفة، ويسهل التّعرف عليها"[1].

2- تيميات الرّواية الاجتماعية (البعد الشّخصي):

الرّوايات الاجتماعية هي أعمال أدبية تركز على القضايا الاجتماعية والثّقافية والسّياسية في المجتمع، وتسلط الضوء على العلاقات الإنسانية والتحوّلات الاجتماعية الّتي تؤثر على النّاس وتغير حياتهم، وتتنوع موضوعات هذه الرّوايات بين الفقر والعنصرية، والتمييز والصّراعات الطائفية، والثورات والحروب والهجرة والاندماج في المجتمع، وغيرها من الموضوعات الّتي تشغل بال الكثيرين، لذلك فهي لا تعتمد على موضوع واحد أو قضية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى معالجة العديد من القضايا المتشابكة والمتداخلة في مضامينها، وعلى اعتبار أنّ الرّواية "من أهمّ أشكال النثر الّتي عرفتها آداب العالم لتعبر عن روح الشّعب وطبيعته في الرّواية والقصة.."[2]، فمثلا حين تعالج موضوع التطرف الدّيني فإنها تحاول أن تجد له مبررات حدوثه، وتحاول النزوع إلى نفسية المتطرف، وعوامل تنشئته الاجتماعية، ومعطيات البيئة الّتي كونت هذه الشّخصية، وهذا بالضبط ما عمد إلى توضيحه وتبيانه "علاء الأسواني" في روايته وهو يستجلي أبعاد شخصية "طه الشاذلي" منذ طفولته الأولى إلى علاقاته الاجتماعية والعاطفية، إلى حياته الجامعية كشاب طموح يبتغي تحقيق أحلامه في الانضمام إلى كلية الشّرطة، وصولا إلى صخرة تحطم هذه الآمال وتعرضه للاغتصاب والتعذيب، ثم البحث عن وسيلة للانتقام من واقعه الاجتماعي،و الشّخصية الكامنة المقهورة المخفية وراء جسد متهاو، فينضم إلى مجموعة متطرفة تستغل الدّين لأغراض سياسية وشعبوية ،محاولة منها الوصول للسلطة باستعمال أساليب عدة، واستغلال مثل هذه الشّخصية المهتزئة في أدوارها وتفاعلاتها الاجتماعية، فتتخذ من هذه المشاكل الّتي يعيشها " طه الشّاذلي " مطية لإقناعه بالانضمام إليهم، وتصوير شخصيته كشخصية الشّهيد المفدى الّذي يدافع عن شرفه وعرضه، ومباركة الجميع لمساعيه السّامية حتى ولو كان الثمن قتل أناس أبرياء، ولا يهم أن يستشهد بعدها -حسب زعمهم-، فالثمن الجنة كما صوروا له ذلك بعد أن استفرغوا من روحه كل معتقداتها الإنسانية ونوازعها الفاضلة، فيكون بذلك ضحية ساذجة لمزاعمهم الخبيثة، المتوارية وراء أقنعة ضبابية متنامية، وهنا تظهر القيمة الخُلُقية والفنية والأدبية في تصوير الأحداث الاجتماعية في بنية النّص الرّوائي، وتداعياتها في سياقات وأزمنة تسجلها، وتبعث من خلالها دائرة السّرد التّسجيلي التّصويري، محاولة بذلك ملامسة أطراف الوقائع بواقعية نموذجية تتداخل مع التّخييل، لتكتب نصا نثريا هادفا وماتعا، يرسم كل أبعاد القضية الاجتماعية المدروسة، وعلى غرار التّطرف الّذي سُقت نموذجا عنه تظهر قضايا اجتماعية أخرى، بأبعاد سطحية وعميقة كالفقر ومسبباته، والشّذوذ

ورواسبه، والرشوة ومبرراتها، والجهل ونوازعه وتطلعاته لاكتساب المناصب السّامية، وبسط النفوذ في أعلى مؤسسات الدولة، متجلية في التمثيلات البرلمانية والهيئات الحزبية، والضلوع في تحديد المصائر في دوائر صنع القرار، وكل مناحي خيبات الحياة ومراحل القهر والانكسار، كل هذه القضايا عمدت الرّواية الاجتماعية إلى تقصيها والبحث في كنهها، بتوظيف شخصيات رئيسية تحرّك السرد الفني الاجتماعي لترسم أبعاد الظاهرة المدروسة، وعلاقاتها بباقي القضايا الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية الأخرى مرورا على بعض الشخصيات الثانوية التي لا تقلّ أهمية ووزنا عن سابقتها، فهي تمثل أيضا جانبا هاما من سيرورة العمل الإبداعي الذي يرسم معالم هذه القضايا التي تعنى بها الرّواية الاجتماعية، وتنزع إلى توضيحها وتعريتها على اعتبار أنها قضايا إنسانية هامة.

3- التّحولات الاجتماعية :

3-1- التّحول المكاني :

في هذا الشّأن ذكر الرّوائي علاء الأسواني الهجرة والنّزوح من الأرياف والقرى، خاصّة من الصّعيد المصري إلى القاهرة الّتي مثّلت دورا هاما ومركزيا، أو كما يطلق عليها وسط البلد، والّتي جسّدت على طول فصول الرّواية منطقة الجذب والعمل، والتّقدم والانفتاح في مرحلة تحوّل الاهتمام فيها إلى مناطق جديدة أخرى لفك الخناق عن القاهرة كمدينة نصر الجديدة والمهندسين، وعلى هذا الأساس يذكر الأسواني ظاهرة النّزوح والهجرة وتحول الأمكنة في إطار سرد منظم يهيئ ظروف التّحول المكاني والشّخصي فيقول: "فالشيخ المليونيرالّذي جاوز السّتين بدامن ثلاثين عاما مجرّد "نفر" سريح نزح من محافظة سوهاج إلى القاهرة بحثا عن الرّزق .." [3]، وفي هذا إشارة واضحة إلى التّحول المكاني ثمّ النّماء والتّطور الشّخصي فالحاج عزام بدأ حياته مجرد ماسح للأحذية في شارع طلعت حرب بالقرب من العمارة وانتهى إلى رجل مال وأعمال كبير ،وعمّد المؤلّف إلى استعمال التّحوّلات الحاصلة في المجتمع وبعض ظواهره الجديدة ليوضح في متنه الرّوائي مظاهر النّماء أو التّطور، أو التّخلف أو التقهقر الّذي واكبته الرّواية العربية، وفي هذا الشأن يقول سعيد يقطين حينما يتكلم عن تطوّر الرّواية العربية مقارنة بنظيرتها الغربية في رصد الظّواهر المجتمعية : "عرفت الرّواية العربية في تاريخها القصير.... تطورا كبيرا على مستوى الموضوعات الّتي عالجتها..... هيأ لها هذا التّطور المتحقق في مسيرتها القصيرة موئلا مكنها من ملاحقة تحوّلات المجتمع العربي الحديث..."[4]، فالأسواني أيضا يتابع هذه القضايا باهتمام ويقول في بعض المشاهد الّتي سآتي على

ذكرها : "وانتهى الأمر بنشأة مجتمع جديد فوق السّطح مستقل تماما عن بقيّة العمارة... و صار مجتمع السّطح لا يختلف عن أي مجتمع شعبي آخر في مصر"[5].

هذا التحول المكاني الّذي شهده واقع العمارة في سيرورة تاريخها يؤكد الفوارق الطبقية، الّتي آل إليها المجتمع القاهري المصري، حين أثرت ظاهرة النّزوح والهجرة والتّطورات السّياسية الحاصلة على تركيبته، فغدا سطح العمارة الّذي كان إلى وقت قريب قبل هجرة الأجانب من سكانها مكانا تعيش فيه كلابهم، وتُخزن فيه بقايا وفائض حاجياتهم في غرف حديدية، مكانا تعيش فيه العائلات الكادحة النّازحة الفقيرة، وتحتها في الشقق الفارهة تعيش الطّبقات الغنية وأصحاب النّفوذ، فتكون العمارة بذلك اختزال حي لمتناقضين انقطعت الصّلة بينهما تماما، فلكلّ عالمه الخاص الّذي يشغله وظهرت ملامح الطّبقية بأبشع صورها.

وفي تحوّل ذي صلة بموضوع النّزوح والسّكن، والوضع المتردي الجديد الّذي عاشه سكان الغرف الحديدية يعود بنا الأسواني إلى جانب اجتماعي إنساني أخلاقي، أتى على ذكره في خضم مزاوجة سردية تقيم مقارنة بين وضع سابق وآخر لاحق فيقول: "ولم تستعمل الغرف الحديدية قط في مبيت الخدم ربما لأنّ سكان العمارة من الأرستقراطيين والأجانب لم يتصوروا إمكانية نوم أي إنسان في غرفة ضيقة بهذا الشّكل"[6].

لذا قام سكان هذه الشّقق بتخصيص مكان خاص للخدم في شققهم الفاخرة، وفي هذا لفتة إنسانية تحُوّل مسار السّرد ليضاهي سلوكا مناقضا آخر فيقول المؤلف متحدّثا على التّحول المكاني الحاصل بعد الثّورة المصرية: "وقد بدأت زوجات الضباط في استعمال الغرف الحديدية بطريقة مختلفة فصارت لأول مرة أماكن مبيت للسّفرجية والطّباخين والشغالات الصغيرات المجلوبات من قراهن لخدمة أسر الضّباط"[7]، هذه المقارنة زادت البنية السّردية للرّواية أكثر جمالية وواقعية، في تتبع مسار التّحول الاجتماعي الشّخصي والمكاني، وفي إطار متصل آخر تبقى سيرورة السّرد الرّوائي تصوّر واقع هذا التّحول المكاني، حتى بين الطبقات المحرومة ذاتها الّتي سكنت هذه العمارة ورضخت لمعطيات الواقع المفروض "وتنازل السّفرجية والخدم القدامى مقابل المال عن غرفهم الحديدية لسكان فقراء جدد قادمين من الأرياف"[8]، وفي هذا إشارة لافتة إلى تحول اجتماعي يخص الأشخاص والمكان، فمع رحيل الأجانب والأرستقراطيين كنتيجة من نتائج التّحول السّياسي المرافق للثّورة لم يبق للخدم والسّفرجية شغل في العمارة فتنازلوا عن غرفهم لطبقة مسحوقة أخرى من الفقراء مقابل المال.

3-2- التحول الزّماني :

لعب الزّمن في الرّواية وتحوّلاته دورا هاما ومحوريا في رسم وتحريك الأحداث، ومقاربة الوقائع، فلا يمكن أبدا أن نتخيّل عنصر الزّمن غائبا عن الرّواية، فوجوده فيها ركيزة العمل الرّوائي وبدونه لا يوجد أصلا، فمن خلاله تبرز جمالية النّص، على عكس المكان الّذي يكتسي طابع الجمود "إنّ الفراغ أو المكان هو زمن ساكن، في حين أنّ الزّمن فراغ أو مكان متحرّك"[9]، وقد رسم الأسواني في مؤلفه أزمنة مجملة كثيرة تمثّل فترات لعقود مختلفة، رصد من خلالها التّحول الحاصل للأحداث في هذا الوعاء الّذي يحتويه "و حتى نهاية السّتينيات كان في شارع سليمان باشا وحده ما يقرب من عشرة بارات صغيرة ... بحلول الثّمانينات، لم يتبق في وسط البلد كلها سوى بضعة بارات صغيرة متناثرة"[10]، يرصد السّرد حركة الزّمن من خلال ذكر فترة السّتينيات الّتي كانت مميزة بوجود مجموعة معتبرة من البّارات، وما عقب ذلك من تحوّل خلال مسيرة عشرين سنة من الزّمن ،حيث فقدت البّارات قيمتها نتيجة التّحول الحاصل في المجتمع المصري بعد هجرة الأجانب منها، وظهور المد الدّيني الّذي ضَيَّق كثيرا عليها وتقلص حجمها، وما بقي منها كان بدفع رشاوٍ للبوليس، وبتمويه لنشاطاتها الحقيقيّة، وهذه المفارقة في استعمال الزّمن زادت بنية النّص السّردية فنية وجمالا في نقل الأفكار والأحداث متسلسلة، وبذكر الأسباب والتّمهيد للنتائج، بسرد أفكار متنامية ومتلاحقة وبلغة سلسة جميلة، كما أتى الرّوائي على ذكر حلقات الزّمن وهو يذكر مكامن التّحول الحاصل في وسط البلد بإجراء مقارنة مداها قرن من الزّمن.

"ظلت وسط البلد –لمائة عام على الأقل– المركز التّجاري والاجتماعي للقاهرة حيث تقع أكبر البنوك والشّركات الأجنبية.. ثمّ جاءت السّبعينات فبدأت وسط البلد تفقد أهميتها شيئا فشيئا وانتقل قلب القاهرة إلى حيث تعيش النّخبة الجديدة في المهندسين ومدينة نصر"[11]، يُحمِّل الأسواني في سرده الرّوائي عنصر الزّمن المتلاحق والمنتظم الأحداث الحاصلة في تركيبة وتوّجه، وتحوّل المجتمع المصري خلال مائة عام المنقضية فبعد أن كان وسط البلد في القاهرة يمثل شريان الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بدأ يفقد مكانته وفق أزمنة متتالية حتّى تحوّل أخيرا إلى منطقة جذب جديدة في المهندسين ومدينة نصر الجديدة، تماشيا مع التّطورات الحاصلة في المجتمع من انفتاح وغيره.

3-3- تحول الشخصيات:

يأتي حميد لحميداني على ذكر مفهوم الشّخصية فيقول: "عرفها رولان بارت بأنّها نتاج عمل تأليفي حيث كان يقصد أنّ هويتها موزعة في النّص عبر الأوصاف والخصائص الّتي تستند إلى اسم علم يتكرر ظهوره في الحكي"[12]، فالشّخصية بهذا المفهوم لها أبعادها الخاصّة ومواصفاتها المميزة الّتي تنتشر في المتن الرّوائي وتؤدي دورا هامّا وفاعلا في تحريك الأحداث السّردية .

سأركز في هذا الشّأن على بعض أهم الشّخصيات الفاعلة في العمارة محاولا رصد أهم التّحولات الحاصلة في حياتها ومدى ارتباط ذلك ببنية النّص السّردية:

أ- شخصية "زكي بك الدسوقي":

تتميز هذه الشّخصية بكونها شخصية أرستقراطية ولها مكانة علمية، تلقت تكوينا فرنسيا في الهندسة ولها ذوق خاص في الحياة، وهي شخصية البطل الّتي استهل بها المؤلف متنه القصصي وأنهاه بها، وبين المرحلتين تتجلى أحداث كثيرة حُرِكت حسب حاجة السّرد القصصي، وما تبعه من تخييل فني وإبداعي، وهذه الشّخصية عرفت تحولات كبرى رصدها الكاتب في مواضع عدة، بدأت تظهر ملامحها منذ العهد الملكي إلى غاية قيام الثّورة المصرية وإلى ما بعدها، وأساس هذا التّحول له عوامله الخاصّة "... فلم يلبث مكتبه الهندسي الّذي فتحه في عمارة يعقوبيان أن باء بالفشل وتحوّل مع الأيام إلى مكان يقضي فيه زكي بك وقت فراغه اليومي حيث يقرأ الجرائد ويحتسي القهوة ويلقى أصدقائه وعشيقاته... على أن الإخفاق الّذي لقيه المهندس زكي الدّسوقي في حياته العملية لا يرجع فقط إلى قيام الثّورة، وإنما يرجع في الأساس إلى فتور همته وتهافته على اللّذة..."[13]، ونجد هذه التّحولات السّلبية في شخصية البطل تتوزع على طول الرّواية وفي الفترات التّاريخية الّتي شملتها، فنجده مثلا يدمن السّهر واللّيالي الحمراء ويتفنن في الإغواء، مما سبب له تحوّلات كثيرة مع المحيطين به، مثل أخته دولت الّتي كان يتصارع معها دوما، حتى في منتصف الليالي حين كان يعود ثملا إليها، ويَلقى التّوبيخ واللّوم وسوء المعاملة، على نقيض ما كان من ذي قبل من هدوء ووئام واحترام واتزان بينهما، كذلك خديعة السّرقة الّتي تعرض لها من إحدى عشيقاته في سهرة ماجنة لا تلائم شخصيته ومركزه الاجتماعي، قبل التّحول الحاصل في مركز وسلطة أبيه السّياسية، حتى أن السّجائر الّتي كان يقتني أجودها وبتعال، صار يسحب رديئها وبسؤم يقطع أنفاسه الضئيلة، وفي هذا يقول علاء الأسواني : "وذلك السيجار الشهير الّذي كان أيام العز كوبيا فاخرا فصار الآن من النوع المحلي الرديء ذي الرّائحة الفظيعة.."[14].

كما يمكن الإشارة إلى أن مشهد السواد والضبابية في حياة البطل المذكور، شهد نوعا من الانفراج والتّحول الإيجابي في نهاية الرّواية، رغم أنّ الأمر كان يوحي بالعكس من خلال ما صوّره السّرد ليجعل القارئ في لهفة وشوق، للوقوف على نمط هذا التّحول المتمثّل في توديعه لحياة المجون والتّسكع والعزوبية رغم تأخره الكبير عن الزّواج، فهاهو يقطع تذكرة حقيقية للارتباط المشروع "ببثينة" ممّا أحدث نقلة نوعية في حياته وحياتها معا، وهذا ما جعل "كريستين" صديقته القديمة تسعد بذلك "كم أنا سعيدة من أجلك يا زكي ...!! لقد فعلت ما كان عليك أن تفعله من زمان ..كان هذا حفل زواج زكي بك الدّسوقي من بثينة السّيد"[15].

يختم السّارد أهم تحوّلات شخصية البطل السّلبية بزواجه من فتاة في مقتبل العمر، ساقتها الأقدار في طريقه بعد رحلة ضياعها هي الأخرى، فالتقى الضياع كقاسم مشترك بينهما ليتجاوزاه معا بارتباط دائم وسعيد وهذا ما أضاف على بنية الرّواية انفراجا وارتياحا يبعث في نفسية القارئ المتعة والطمأنينة.

ب- شخصية حاتم رشيد:

ساق السّرد الرّوائي هذه الشّخصية في قالب متناقض يتلاقى فيه المركز والنّفوذ والعلم مع الانحطاط والتّمرد والشّذوذ، كون أنّ هذه الشّخصية في أصلها شخصية علمية وصحفية، تعمل في "جريدة لوكير" الصّادرة باللغة الفرنسية، وهو من عائلة أرستقراطية، وكان نتاج زواج مختلط بين والده المصري وأمّه الفرنسية، عاشت هذه الشّخصية الحرمان العاطفي منذ الطّفولة، لأنّ والداه انشغلا بمركزيهما المرموقين وعلاقاتهما النّافذة، وقصّرا كثيرا في الاهتمام به وتربيته، ومنحه الحنان اللازم فكان هذا الأمر يؤلمه أيّما ألم، فلم يجد أمامه غير خادم قذر يدعى "إدريس"، استغل ظروفه وحاجته للحنان، فقدم له بديل ذلك حبا خبيثا مُقَنّعا، وتقرب منه شيئا فشيئا في الغياب التّام واليّومي لوالديه، وأوقع به فكان فريسة لشذوذه، حتى صار لا يفارقه ويتحكم فيه كما يشاء، ويظهر هذا التّحول بعد ذلك في شخصيته وهو يكبر فيتحول إلى شاذ حقيقي في أماكن الانحطاط الأخلاقي، من حانات في قلب القاهرة على غرار "بار شينو" وأماكن المجون الكثيرة، الّتي كان يرتادها لينال مبتغاه مع كل صنوف الشّواذ، والّذين عبّر عليهم الأسواني بأسماء توحي بالتّحول الإنساني والأخلاقي، فذكر بعض مصطلحاتهم المتداولة والّتي تميزهم عن عالم وحياة الأسوياء من النّاس فاستعمل لذلك عبارات "كوديانا، البرغل، الوصلة، برغل ناشف"، وعاش حاتم هذه الحياة المتناقضة بين عمله كصحفي ورئيس تحرير مرموق في أكبر صحف مصر، وبين حياته الخاصة والّتي

كلها شذوذ لا ينتهي، إلى أن تعرف على مجند الأمن المركزي "عبد ربه"، والّذي كان يحمل من مواصفات إدريس الشّيء الكثير مما راق له، وتحوّلت عوالم الشّذوذ لديه متدفقة، رغم إباء عبد ربه ورفضه الغوايّة في الأول، من وحي تربيته وأخلاقه الصّعيدية الرّجولية، لكن لم يدم هذا طويلا وتملّكه التّحول الّذي غير مجرى حياته إلى السّلب، واعتاد على حاتم بوصلات متقطعة بمفهوم عالم الشّواذ، خاصة أيام إجازات هذا الجندي الفتي، واستمر الصّراع بين أخذ ورد ومحاسبة الضّمير إلى أن حدث أكبر تحول في حياته وحياة حاتم بعد مصاعب أسرية عاشها، وما ظنه عقابا إلهيا مسلطا عليه نظير بشاعة أفعاله مع حاتم حيث انتهت العلاقة بأن أجهز عليه وأرداه قتيلا، وبهذا وضع حدا لحياة الّشذوذ والمصائر المحتومة الّتي تبعت ذلك، وقد ذكر علاء الأسواني ذلك في قوله : "... وانقض على حاتم يركله ويلكمه بيديه وقدميه ثمّ أمسك به من رقبته وأخذ يضرب رأسه في الجدار بكل قوته حتى أحس بدمه ينبثق حارا لزّجا على يديه وقد ذكر الجيران بعد ذلك، في المحضر، أنهم سمعوا في حوالي الرّابعة صياحا صرخات تنبعث من شقة حاتم لكنّهم لم يتدخلوا لمعرفتهم بطبيعة حياته الخاصة ..."[16].

سلّط الأسواني الضّوء على موضوع هام من خلال سرده المتتابع، وتوصيفاته الدّقيقة التّي حملتها بنية النّص بلغة بسيطة لكنّها عميقة المعاني، حين تناول قضية من القضايا المسكوت عنها (قضايا التّابو) وبجرأة كبيرة لم تتناولها الرّوايات العربية المعاصرة من ذي قبل، نظرا لطبيعة المجتمعات العربية المحافظة الّتي تحكمها النّزعة الدّينية خاصّة ما تعلّق بموضوع المثلية الجنسيّة، الّذي يُعدّ موضوعا دخيلا ومستهجنا، لا يمكن الخوض في تفاصيله بحرية وشجاعة أدبية .

4- التحولات السّياسية :

لعبت التّحولات السّياسية الّتي شهدها المجتمع المصري دورا هامّا في استجلاء قناعات المؤلّف من خلال متنه الرّوائي، وسأذكر بعض مظاهر هذه التّحولات وفق ما يلي:

4-1- الفساد السّياسي للضّباط :

تطرق علاء الأسواني في متنه الرّوائي إلى إحدى مظاهر فساد الضّباط الأحرار بعد توليهم سدّة الحكم واختيار "محمد نجيب" كرئيس للجمهورية بعد ذلك، فذكر استيلائهم على شقق عمارة يعقوبيان بعد أن هجرها الأجانب وأصحاب النّفوذ والمال الفاسد في العهد الملكي فيقول: "قامت الثّورة فتغير كلّ شيء

بدأت هجرة اليهود والأجانب خارج مصر وكانت كل شقة تخلو بهجرة أصحابها يستولي عليها أحد ضباط القوات المسلحة، أصحاب النّفوذ في ذلك العهد..... وصولا إلى اللّواءات الّذين كانوا ينتقلون بأسرهم الكبيرة إلى العمارة بل إنّ اللّواء الدكروري (مدير مكتب الرئيس محمد نجيب في وقت ما) استطاع أن يحصل على شقتين كبيرتين متجاورتين"[17]، هذا الاستشهاد يوحي بمدى الحظوة والسّلطة الّتي كان يتمتع بها الضباط الأحرار بعد الثورة، وتدلّل على مدى الفساد الّذي كان بموجبه يتم الاستيلاء على الشّقق السّكنية، وبعض الامتيازات الاقتصادية وغيرها، باستعمال أحقية الشّرعية الثّورية، إضافة إلى تورطهم في قضايا فساد أخرى "النتيجة أنهم عملوا انقلاب سنة 52، حكموا مصر وسرقوها ونهبوها وعملوا ملايين"[18]، يؤكد الأسواني تورط الضباط الأحرار في قضايا عديدة من قضايا الفساد السّياسي، وتحوّل مهامهم الثّورية في الدّفاع عن مقوّمات الأمة وحقوقها إلى استغلال النّفوذ والمنصب وخدمة المصالح الشّخصية، فنعت ثورتهم بالانقلاب في المتن الرّوائي وعلى لسان البطل "زكي" في موقف حجاجي مع شخصية متخيلة تجسد واقع مصر الحالي، ونقمتها على الأوضاع المتردية والتحولات التي مثلت وجسدت كل الإخفاقات الحاصلة .

4-2- تحوّل نظام الدولة:

أتى المؤلف ومن خلال توصيف شخصية "كمال الفولي" الّذي مثّل الجانب السّياسي للنّظام وتحوّلاته الّتي شهدها، فذكر أهمّ التنظيمات الّتي مرت عليها هذه الشّخصية من خلال تحوّل وتطوّر المنظومة الحزبية فيقول: "انضم كمال الفولي إلى كافة تنظيمات السّلطة بالتّرتيب: هيئة التحرير والاتحاد القومي ثمّ الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي وبعد ذلك منبر الوسط وحزب مصر وأخيرا الحزب القومي، وخلال هذه التّحولات كان دائما أشد المتحمسّين لمبادئ حزب الحكومة وأعلاهم صوتا"[19]، ينقلنا السّرد بتتابع وفنية للوقوف عند مكامن التّحول السّياسي للدّولة، من خلال استعراض ماضي وواقع هذه الشّخصية، وتدرجها في نيل المناصب الحزبية ثمّ لا يلبث أن يوضح لنا أهم التّحولات السّياسية الاقتصادية الّتي شهدتها الدّولة المصرية من خلال استعراض توجه هذه الشّخصية "في العهد النّاصري ألقى محاضرات وكتب مؤلفات في حتمية التّحول الاشتراكي وضرورته التّاريخية ولما انقلبت الدّولة إلى الرّأسمالية صار من أشد أنصار الخصخصة والاقتصاد الحر وشنّ تحت قبة البرلمان حملة ضارية شهيرة ضد القطاع العام والأفكار الشّمولية"[20].

أظهر الأسواني التّحولات السّياسية العميقة الّتي عرفتها مصر، ورمزّ إليها بتحوّل شخصية "كمال الفولي" الّذي ساند الاشتراكية في الأوّل لما تبنتها الدّولة، ثمّ سرعان ما تحوّل كمدافع شرس على مشروع الخصخصة ومنتقد لمبادئ النّظام الاشتراكي، بل ورمزّ من خلال هذه الشّخصية إلى البقاء الطّويل في سدّة الحكم والمراكز السّياسية السّامية في الدّولة "ولعلّه أحد السّياسين المصريين القلائل الّذين استطاعوا الاحتفاظ بمقعد في البرلمان لأكثر من ثلاثين عاما متصلة"[21]. وأكد بذلك على الاستبداد السائد في منظومة الحكم السياسي.

4-3- ظهور المد الدّيني :

عالج الأسواني قضية ظهور التّيار الدّيني الإخواني كقضية سياسية ظهرت إلى السطح، وهدّدت أمن الدّولة وتوّجهاتها السّياسية، واعتبرها نقطة تحوّل هامة في مسار بناء الدّولة المعاصرة، فأتى في بنيته السّردية على ذكر نشاطاتها وإيديولوجياتها، وقناعاتها السّياسية المتطرفة، حتّى وصلت إلى قاعات وباحات الجامعة المصرية، والشوارع الرّئيسية، واصطدمت بقوات الأمن أثناء قيامها بمظاهرات تمس بأمن البلاد وتعرّض مصالحها للتهديد، ووظف الأسواني عدة شخصيات للدّلالة على ذلك، ولإبراز خطورة التّحول الدّيني على مسار الحياة السّياسية أمثال "طه الشّاذلي" المغرر به، و"الشّيخ شاكر" الّذي كان يدعو في خطاباته الدّينية إلى التّمرد السّياسي عن النّظام الحاكم، و"الأمير بلال" المدبر لعملية الاغتيالات السّياسية لضباط الشّرطة ورموز الدّولة، وتسيير شؤون معسكر التّدريب، وكانت اللّغة الّتي استعملت في رصد هذه التّحولات تناسب خطورة المواقف، وحماسة الخطب ورغبة التّحول مما زاد من تماسك وفنية بنية الرّواية السّردية وهي تستعرض تفاصيل هذه الأحداث الخطيرة "لا نريد أمتنا اشتراكية ولا ديمقراطية .. نريدها إسلامية إسلامية .. وسوف نجاهد ونبذل النّفس والنّفيس حتى تعود مصر إسلامية .. الإسلام والدّيمقراطية نقيضان لا يجتمعان أبدا"[22]، هذا الخطاب الدّيني المتشدّد على لسان الشّيخ شاكر، يظهر عمق الإيديولوجيات الفكرية والقناعات الرّاسخة الّتي كانت متوارية في الأنفس، وأظهرتها الأحداث السّياسية المتنامية كحرب الخليج الّتي وظفها "الأسواني"كموضوع سياسي أظهر فيه سياسات الدّول وضعفها أمام قوى العالم الكبرى، صانعة القرار، وليُظهر من خلالها أيضا قضية الإسلام السّياسي، حينما يتكلم على تحوّل رجل الدّين عن مهامه السّامية ليصير بوقا للسّلطة، ويجتهد في إصدار الفتاوي الدّينية

الّتي تخدم مصالحها "الحكام الفاسدين المتهافتين على المال واللذات الذين حكموا العالم الإسلامي في أزمنة الانحطاط بمساعدة فقهائهم المنافقين أن يستبعدوا الجهاد من فرائض الإسلام"[23].

ويأتي الأسواني على ذكر مواقف "الشّيخ السّمان" وهو يبحث جديا عن إصدار فتاوي بالتّنسيق مع فقهاء دول عربية، على غرار السّعودية في حكم مشروعية مشاركتهم مع الأمريكان واليّهود ومَنْ سبح في فلكهم من أعداء الأمّة الإسلامية في حرب الخليج الأولى، ضد شعب العراق المسلم، ليوضح تحوّل المواقف السّياسية بعد رحيل زعماء القومية العربية، في نصرة إخوانهم المسلمين فيقول كموقف منتقد لهذه الحرب على لسان شاكر: "بالأمس بدأت الحرب القذرة وانساق حكّامنا لقتال المسلمين تحت إمارة الكفار"[24].

من خلال هذا المشهد التّصويري للحدث وتبعات تحوّلاته السّياسية يبدو الموقف النّقدي في البنية السّردية واضحا ويدل على الامتعاض والاستهجان لهكذا مواقف متخاذلة، وقف عندها السّارد في رصد دقيق صوّر من خلاله بعد هذا التّحول وتأثيراته على فئة من أفراد المجتمع المصري، لها توّجهها الدّيني والإيديولوجي وهذا ما كشفت عنه البنية السّردية للرّواية، وكأنّها تسجله وتترجمه ليحاكي الواقع الّذي كان سائدا، وبمقاربات تأويلية، وأخرى تخييلية خدمت المشاهد السّردية برمتها، وهي تتداخل وتتشابك لتصنع نسجا أدبيا فنيا بديعا .

خاتمة:

بعد أن قمت بهذه الدّراسة البحثية للرّواية العربية في ضوء التحولات الاجتماعية والسّياسية "عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني أنموذجا، ودراسة الأوضاع الاجتماعية والسّياسية في مصر، وتحوّلاتها الحاصلة والّتي تجسدت في ثنايا المتن الروائي المدروس انطلاقا من بنيته السّردية ووقوفا عند هذه التّحولات ورصدها ومحاولة الكشف عن أبعادها الكامنة، فإنني توصلت إلى النتائج التّالية:

1- عملت الرّواية في سياق تحوّلات ظواهرها السّياسية والاجتماعية على تعرية الوقائع المشهودة خلال فترات تاريخية متعاقبة، ورصد كل المظاهر السيسيولوجية من فقر، وتمايز طبقي، وبطالة ورشوة واستغلال النّفوذ، وتمرد وشذوذ وغيرها .

2- ركزّت الرّواية على محاكمة ظواهر اجتماعية، وأحداث سياسية معينة، بعين ناقدة وأسلوب رصين وحاولت إعطاء تفسيرات لكل القضايا الحاصلة، ومقارنتها بالنتائج المسجلة على اختلاف الأزمنة وسيرورة أحداث تحوّلاتها.

3- مثّلت "عمارة يعقوبيان" كل الأطياف المصرية بكل تنوعاتها الاجتماعية، والدينية ومشاربها السّياسية وتوجهاتها الإيديولوجية، والثّقافية بكل الأبعاد الكائنة والمتوقعة، عبر تيار التخييل الروائي، خاصة ما تعلّق بقضايا التّعايش بين مختلف الأجناس البشرية، في وعاء مكاني جسده فضاء وسط البلد بمدينة القاهرة .

4- سجلت كل التّحولات الاجتماعية، والسّياسية، والاقتصادية، والثّقافية الحاصلة بعد ثورة يوليو الإصلاحية، وزوال الإقطاعية، وتأميم واسترجاع الموارد الاقتصادية، وذكر أسماء الحكام والزّعماء بواقعية مضبوطة .

5- وضحت دور ووزن الأقليات والجماعات الإثنية في صنع واقع الحياة المصرية، وتأثيراتها الحاصلة قبل وبعد ثورة ضباط الأحرار، ومشاركتها في تحوّلات البلد الاجتماعية والسّياسية.

6- كان لرواية يعقوبيان السّبق في تناول قضايا التّابو الأدبي (القضايا المسكوت عنها) والتّحولات الّتي رافقتها في رسم حدود الظّاهرة ونقدها بجرأة وشجاعة أدبية.

7- استلهم علاء الأسواني موضوع سرده القصصي من زوايا عمارة هندسية خلدت اسم "هاغوب يعقوبيان" عميد الأرمن، وحاول من خلالها ربط تاريخ مصر القديم بتاريخها الحديث والمعاصر، ليعبر عن واقع الصّراع وأوضاع الطّبقات المسحوقة، وشخصياتها الّتي مثلت أدورا ثانوية تدخل في دائرة تداخل وتشابك الأحداث، وتلاقيها مع الشّخصيات الرئيسية الّتي حركت السّرد القصصي، وزادته تماسكا وفنية وجمالا.

8- احتوت البنية السّردية للرّواية كلّ مظاهر التّحول الاجتماعي والسّياسي، والثّقافي والاقتصادي، فتناولت الأحداث والوقائع بكل ما يناسب الظاهرة بلغة وبأسلوب مناسبين، وفي تنظيم وتناغم فني جميل انعكس أثره إيجابيا على المتن الرّوائي وزاده متعة وتشويقا.

الهوامش والإحالات :

[1]- روجر ب هنكل : قراءة الرّواية ، ترجمة صلاح رزق ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى ، 1995 م ، الصفحة 98.

[2]- فاروق خورشيد ، الرّواية العربية (عصر التّجميع) ، دار الشّروق ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1982، الصفحة 20 .

[3] - علاء الأسواني: المرجع السّابق، ص 71.

[4]- سعيد يقطين : قضايا الرّواية العربية الجديدة (الوجود والحدود) ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2012م ، الصفحة 91.

[5]- علاء الأسواني : عمارة يعقوبيان ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 2002م ، الصفحة 24.

[6]- المصدر نفسه ، الصفحة 21.

[7]- المصدر نفسه الصفحة 23.

[8]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[9]- اميل توفيق : الزمن بين العلم والفلسفة والأدب دار الشّروق القاهرة ، ط 1 ، 1986 ، الصفحة 127.

[10]- علاء الأسواني : عمارة يعقوبيان ، ص 49.

[11]- المصدر نفسه ، الصّفحة نفسها .

[12]- حميد لحميداني : بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 ، 2000 ، الصفحة 50- 51.

[13]- علاء الأسواني : عمارة يعقوبيان ، ص 11 و12.

[14]- المصدر نفسه ، الصّفحة 10.

[15]- المصدر نفسه ، الصفحة346 .

[16]- المصدر نفسه ، الصفحة 334.

[17]- المصدر نفسه ، الصفحة 22.

[18]- المصدر نفسه ، الصفحة 229.

[19]- المصدر نفسه ، الصفحة 114.

[20]- المصدر نفسه ، الصفحة 115.

[21]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[22]- المصدر نفسه ، الصفحة 124- 125.

[23]- المصدر نفسه ، الصفحة 133.

[24]- المصدر نفسه ، الصفحة 169.

قائمة المصادر والمراجع :

1- علاء الأسواني : عمارة يعقوبيان ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 2002.

الكتب :

2- اميل توفيق : الزمن بين العلم والفلسفة والأدب دار الشّروق القاهرة ، ط 1 ، 1986 .

3- حميد لحميداني : بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 ، 2000.

4- روجر ب هنكل : قراءة الرّواية ، ترجمة صلاح رزق ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى ، 1995م.

5- سعيد يقطين : قضايا الرّواية العربية الجديدة (الوجود والحدود) ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2012م.

6- فاروق خورشيد ، الرّواية العربية (عصر التّجميع) ، دار الشّروق ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1982م.